وحدة الأُمَّة: الأخْطارُ والمبادراتُ

عبد الرحمٰن السالمي

تأتي الأخطار التي تؤثّر سلباً على وحدة المجتمعات والدول من أمورٍ داخليةٍ وأخرى خارجية. وقد واجه المسلمون ـ أُمةً ودولاً ـ بعد وفاة الرسول ﷺ مخاطر داخلية كبيرة، ناجمة عن الوضع السابق بداخل الجزيرة، والأوضاع الخارجية في الإمبراطوريات المحيطة بالجزيرة. ولأنّ الأوضاع السابقة على الإسلام بالجزيرة لم تكن جيدة؛ فإنّ الإنجاز الذي تحقّق للإسلام في السنوات الأخيرة لحياة الرسول ﷺ داخلته انتكاساتٌ بعد وفاة رسول الله ﷺ مباشرةً، وهي الفترة التي سمّيت بالردّة. وكما هو معروف فإنّ من الباحثين مَنْ يرى الردّة خروجاً على الدين الجديد، ومنهم من يراها خروجاً على السلطة الجديدة. وأياً كانت الرؤية؛ فإنّ التمرد قد حدث بشمال الجزيرة وجنوبها خارج المدن والبلدات وللعلّتين معاً. فقد ظهر متنبئون أرادوا تقليد ظاهرة رسول الله خاتم النبيين، كما ظهر في الشمال والجنوب زعماء قَبَليون وسياسيون بعضهم سعى للاستقلال، والبعض الآخر جدّد ولاءه للإمبراطوريتين على حدود الجزيرة: الروم والفرس. فكانت تلك اللحظة ـ التي أُطلق عليها اسم (الردّة) ـ خطراً كبيراً على وحدة الدولة وعلى بقاء الدين.

ولم يكن لدى السلطة بالمدينة التي أقامها الصحابة بسرعةٍ إلّا النضال من أجل استعادة الوحدة السياسية، على أساس أنّ الأمر الديني أو الإيماني لم يكن عليه شاهد غير أداء الزكاة إلى المدينة. وقد أمكن القيام بذلك خلال أقلّ من عامين. وأعان السلطة بالمدينة على ذلك القرار الإجماعي بعد اختلافٍ طفيف. أما العامل الآخر فهو أنّ المرتدّين لم يكونوا موحَّدين أو أن حركتهم ما كانت واحدة لا في الشمال ولا في الجنوب؛ ولذلك فقد انتصرت الفكرة الواحدة والمصالح المشتركة والكبرى، بخاصةٍ عندما تجدّدت المواجهات على جبهتين مع الفرس والروم.

إنّ الذي يقرأ القرآن وأحداث السيرة النبويّة يستظهر له الاهتمام العميق بالوحدة، والقلق العميق أيضاً من انفراط العقد لأسبابٍ دينيةٍ وقبليّةٍ وسياسيّة. وفي آيات بسورة الأنفال تظهر تلك الحيطة الكبيرة لمسألة الوحدة الداخلية، وإشارات متعددة إلى ذلك المصطلح أو المفهوم أو الممارسة، التي تُعتبر أكبر الأخطار على تلك الوحدة المتحققة والتي يجب توقيها. ففي الأنفال: 25 ـ 26: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾.

النوع الأول من أنواع الفتنة المهدِّدة للوحدة إذن هي الفتنةُ الناجمةُ عن وجود أُناسٍ يسعَون للفرقة، وسكوت المجتمعات أو أولي الوعي والتنبُّه عنهم. وتنتهي الآيات بتذكير أُولي الوعي ومثيري الفِتَن معاً بدروس الوحدة الأولى؛ فقد كان المؤمنون قلةً مستضعَفةً، يخافون التخطف والاغتيال، فصاروا بتأييد الله ونصره جماعةً قويةً ذات إمكانيات مادية كبيرة أيضاً. فالدرس الأول في مقولة القرآن بشأن الوحدة والحفاظ عليها: ضرورة الضرب من جانب العقلاء والواعين على أيدي الذين يسعَون للفتنة والفساد بداخل جماعة المؤمنين.

أما **النوع الثاني** من أنواع الفتنة المهدِّدة للوحدة بل للوجود فيردُ في قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ

﴿ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الأنفال: 39]. وهـؤلاء الذين يذكر القرآن وجوب قتالهم دفاعاً هم الذين قال فيهم في الآية 36 من سـورة الأنفال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَ﴾ إنهم أُناسٌ سعوا للقضاء على الجماعة المؤمنة بالقتال وبالمال، فإن لم تَجرِ مجابهتهم دفاعاً، تكون الأُمة مهدَّدةً في وحدتها، وتالياً في وجودها.

ويأتي ذكر **النوع الثالث** من أنواع الفِتَـن المهددة للوحدة تهديداً كبيراً في الآيتين القرآنيتين: 72 ـ 73؛ إذ تبدأ الآية رقم 72 بتعداد صفات الأُمة ذات الولاء الواحـد، والانتماء الواحـد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ... وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾. في معظم الآيات القرآنية التـي تذكر البلاء الذي ينزل بالأُمم لا يقترن فيها الفسـاد بالفتنة؛ لكنهما يجتمعان على الأُمـة عندما يتوزع الولاءُ، فيوالي فريقٌ طرفاً، ويوالي فريـقٌ طرفاً آخر. وهكـذا لا يعود الـولاء واحداً لجماعة المسـلمين وسلطتهم. والقوم الذين ينزلُ بهم هذا الوباء يجتمع عليهم الفساد مع الفتنة. بل إنّ الفتنة المشرذِمة هي التي تسـبب تصدع الانتظام، فيفتح ذلك المجال لمخاطر الفساد، وهو عندما يتعاظم يصبح فساداً في الأرض.

إنّ مفرد الفتنة في الأصل يعنـي الاختبار المادي للمـواد والمعادن من حيث النوع والقيمة؛ لكنه في القرآن الكريم يُستخدم دائماً مجازاً، وهو يعني لدى الأفراد عمل النفس الأمّارة مثـل الفتنة بالأموال والأولاد والأزواج، ومثل الاندفاع في أخلاق العُجب والكبرياء والعقوق والعدوان على الضعفاء. يتحدّث القـرآن الكريم، ويتحدّث رسـول الله ﷺ عن أخلاق المؤمن فـي تعامُله مع نفسـه بين العقل والهوى، وفي تعاملاتـه الأُخرى مع الأقـرب والأبعد. وهي اختبـاراتٌ يحتاج المـرء للفوز فيهـا أو الصلابة فـي وجـه إغراءاتها حتى لا يدخل في الفتنة الحقيقية ـ إلى الصبر والصلابة والتقوى.

أما الفتنة التي يعدّها القرآن مهددة للوحدة فهي الفتنة الجماعية إذا صحَّ التعبير، إنها تبدأ فرديةً أو من عمل بضعة أفراد من أجل إحداث الخلاف بين الناس، وإثارة العصبيات، وتعديد الولاءات. وقد تصل إلى اصطناع انقسامٍ كبيرٍ يصعُبُ رأْبُ صدعه، أو إلى استحداث وعيٍ زائفٍ نتيجة ذلك، هناك التهديد الأكبر للوحدة الداخلية في المجتمعات والدول. وبخاصةٍ عندما يحدث نتيجة شدة الفتنة توزُّعٌ في الولاء، واستنصارٌ من جانب المختلفين بالخارج.

في الأزمنة الحديثة تبدو الأخطار الخارجية أفدح وأشد هولاً، وهي تمثل تدخلاتٍ مباشرةً من الدول الكبرى والوسطى أو غير مباشرة، أو تتخذ سمات الاستنصار بالنظام الدولي. بَيْدَ أنّ الداخل العربي والإسلامي لم يبق بمنأىً عنها، فتعددت الولاءات والتحزبات في الدول وبينها، وفي المجتمعات. ودنا ذلك كلُّه من حديث الفتنة أو مقولة الفتنة أو ممارساتها، والتي يُدينُها القرآن لتأثيراتها السلبية الشديدة على الوحدة الداخلية ووحدة الأُمة بمجموعها. بعد آية الفتنة في سورة الأنفال (25) تأتي آية القلّة المستضعَفة (26) التي حظيت بإيواء دين الله ونصره. وبعد هذا الدرس القرآني يأتي التكليف في الآيتين 27 و28: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾. فالمطلوب وضْع قضية الوحدة فوق كل اعتبار، وهي الأمانة الكبرى. وإذا كان السعي للتفرقة علتُهُ الأموال والأولاد والحرص عليهما، فتلك فتنةٌ فوقها ومن ورائها أجر الله العظيم إذا سَمَت النفس عن الأهواء الشخصية والمطامع الدنيويّة.